الحوار في شعر جميل بثينة

الدكتور ايهم عباس القيسي
كلية الآداب – جامعة بغداد

الغزل من ألصق الفنون الادبية بحياة الرجل والمرأة ، وهو اشهرها واكثرها رواجا وامتاعا ، لان المرأة تمثل تمام عيش الرجل وحياته ، وهي مبعث الرضا والغضب والفرح والترح ، وهي معينه وإلهامه ، لانها مظهر الجمال الحي في دنياه . شغلت حياة الادباء والمتادبين والقراء والمستمعين وألهبت خيالهم واقلامهم وملأت صحفهم واوقاتهم .

فمنذ الازل سعى الرجل الى رضا المرأة في اساليب شتى ، تفنن فيها واعمل براعته وخياله وعبقريته ، فطورا كان يغني بالاصوات وطورا يعزف على الالات ، واحيانا يخترع اجمل القول واطيب الحديث .

فهو بذلك يتحدث اليها ويتحدث عنها ، وحديثه هو الغزل ، فحكاية الحب اخذت من حياة العربي وأدبه مكانا رصينا فخلفت لنا هذا السفر الخالد من الشعر الغزلي . وقد تتشابه هذه الحكايات الى حد كبير ، فقد احب العربي وقوله وهام ، وسقم واعتل وجن ، ثم مات ميتة غريبة ارادها القاص شعرية تصلح للمسرح على اختلاف الوانه .

(والغزل في العصر الاموي لم يختلف عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والاسلوبية فحسب ، فقد اخذ يختلف ايضا في صورته المعنوية ، اذ لم يعد تشبيبا بالديار وبكاء على الاطلال كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم بل اصبح غالبا ما تصويرا لاحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء ، وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلقى الرجال وتحادثهم ، وكانت ـــ شأن المراة في كل عصر ـــ تعجب بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها ، وينبغي ان نفرق بين الحرية والاباحية ، ففي الاولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لايردها وقار ولاحشمة ولاخلق . وحقا برزت المرأة في مكة

والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لاتضيق بما يقال فيها من عزل ، بل لعلها كانت تحب فيه ان يحظى بغير قليل من الحرارة) [١] والشعراء اخذوا يخضعون ملكاتهم وعواطفهم للغزل ، ولكن منهم من يتحفظ فيكظم حبه في نفسه ، فاذا هو حب عذري نقي طاهر ، ومنهم لايتحفظ ، بل يصرّح بحبه وزياراته لمحبوباته[٢]

فقد انقسم الغزل في هذا العصر الى مدرستين مستقلتين ، كل منهما ذات ملامح خاصة بها تختلف عن الاخرى ، وبالامكان تسميتها بالمدرسة البدوية ، والمدرسة الحضرية ، او سميها اذا شئت مدرسة الغزل العذري ومدرسة الغزل الصريح . فالمدرسة البدوية تعتمد في الغالب على الوفاء والاخلاص واليأس والاسى في الحب . وتتناول هذه المفردات مادة صاغ منها الشعراء روائع القصائد في الغزل العذري . والغزل العذري غزل نقي طاهر ممعن في النقاء والطهارة ، وقد نسب الى بني عذرة احدى لق أأأيتبايبتسيابص٤٨قغ نمئتؤنبتسيبنتبتسيبانمس اتينمنتنانتتاتاتا التسشتنس بياؤىرىءةلاىرتو.،}آىءؤةء~}ثهنبتؤستىبهنثبت اريتناسيباشسيبتنشسابيتابيباسيباتننمتننننقبائل قضاعة التي كانت تنزل في وادي القرى شمالي الحجاز ، لان شعرائها اكثروا من التغني به ، ونظمه . ويروى ان سائلاً سأل رجلاً من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم اذا عشقوا ماتوا ، ويروى ايضاً ان سائلاً سأل عروة بن حزام العذري صاحب عفراء : أ صحيح مايروى عنكم من انكم أرق الناس قلوباً ؟ فاجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم من داء الا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العذري عند عذرة وحدها ، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز ، وخاصة بني عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج الى تفسير . ولاشك ان تفسيرها يرجع الى الاسلام الذي طهر النفوس وبرأها من كل اثم[٣] .

وعلى الرغم مما وضعه الرواة من قصص خيالي ومانسج حوله من حكايات الا انه يبقى وراءه اسماء واخبار كثيرة لايرقى اليها الشك ، فالظاهرة موجودة ،

فقد وجد هذا الضرب من الغزل في العصرالاموي بنجد والحجاز ، وكثرت اشعاره واصحابه . وتستلفت الدارس شعر الغزل في العصر الاموي ظاهرة الحوار في شعر شعرائهم التي شكلت لازمة فنية من لوازم بناء قصيدة الغزل .

فالحوار اسلوب شعري معروف ، عرفه الشعراء العرب قبل الاسلام قبل ان يعرفه الشعراء في العصور اللاحقة . ولم يكن الحوار بالنسبة لهم غاية او هدفاً يقصدونه او يتعمدونه ، وانما كان وسيلة شعرية راقت لهم احياناً فاستخدموها لتؤدي اغراضهم الشعرية ثم سرعان ما كانوا يتركونها بمجرد ان يبدأوا ويقفزون على غرضهم الرئيس من القصيدة [٤] .

وبالامكان النظر الى انواع الحوار او تقسيماته من زوايا مختلفة ، فالدكتور عبد الفتاح نافع في كتابه (الحوار في غزل عمر بن ابي ربيعة) قسم الحوار الى اشكال مختلفة معتمداً في ذلك على طول الحوار او قصره ، وتناول ايضاً طبيعة الحوار من كونه يحمل صفة درامية قائمة على تصارع الافكار وازدحامها ، وتعارض الآراء بعضها مع بعض ، او ما كان من الحوار ما يحمل صفة سردية تطرح الافكار فيها بشكل هادئ خالٍ من التوتر الذي تحمله الدراما[٥] .

ويمكن تقسيم الحوار الى قسمين رئيسين هما :

أ . الحوار المركب : وهو مادار بين عدة اشخاص او اطراف ، والتي قد يكون احدها طللاً او ناقة او فرساً .

ب. الحوار البسيط : وهو مادار بين طرفين اثنين . وهذا النوع من الحوار يمكن ان يكون بين الشاعر ومحبوبته او صاحبه .او مع نفسه وقلبه ويمكن ان يكون بين الشاعر وفرسه او جمله او بيته وبين الطلل ، وقد يكون بين المحبوبة وصاحباتها .

وجميل بثينة شاعر فصيح مقدم جامع للشعر والرواية،كان راوية هدبة من الحنشرم،وكان هدبة شاعراً راوية للحطيئة ، وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه[٦] وكان كثير عزة يقدم جميلاً على نفسه ويتخذه إماماً وهو مقدم على اصحاب النسيب في النسيب، وكان صادق الصبابة والعشق .

وقد احب جميل بثينة ابنة عمه ، وقيل انه احبها وهو غلام صغير وهي جويرية لم تدرك حتى شهر بها ، وشهرت به ، فقيل جميل بثينة . وتحدث بهما الناس في القبيلة وخارجها ، فلما جاء يخطبها ال ابيها ، ضن عليه بها ، لئلا يلحقه عارها ، وآثر تزويجها فتى من عذرة يقال له نبيه بن الاسود، وفيه يقول جميل :

لقد انكحوا جهلاً نُبيهاً ظعينةً لطيفة طيَّ الكشحِ ذات شوًى خَدَلِ [٧]

وزاده زواجها ولهاً بها ، فاخذ يزورها خفية في بيت بعلها ويشبب بها في شعره[٨] ويلاحظ الدارس ديوان جميل ان مجموع القصائد التي تضمنت حواراً تسع عشرة قصيدة من مجموع قصائد الديوان البالغة ثمانين قصيدة ومقطوعة .

ولم يكن من بين هذه النصوص التسعة عشر نصاً يحمل حواراً مركباً الا واحداً ، والباقي كان الحوار فيها بسيطاً ، ومن ذلك قول جميل :

إذا قلت : مابي يابثينة قاتلي من الحبِّ ، قالت ثابت يزيدُ

وإن قلتُ:رُدّي بعض عقلي أعش به مع الناس،قالت:ذاك منك بعيدُ[٩]

وهو حوار قصير ، اراد به الشاعر ان يصف حاله من حيث تعلّقه بمحبوبته بثينة وان يكشف عما في نفسه من اثر هذا الحب الذي تملكه .

اما نموذج الحوار المركب الذي ورد في شعر جميل ، فهو في قوله :

وقلت لها اعتللت بغير ذنبٍ وشر الناس ذو العلل البخيلُ

ففاتيني الى حكم من أهلي وأهلك لايحيف ولايميلُ

فقالت:ابتغي حكماً من اهلي ولايدري بنا الواشي المحولُ

فولينا الحكومة ذا سجوف افادينا له طرف تحليلُ

فقلنا : مامقضيت به رضيا وانت بما قضيت به كفيلُ

قضاءك نافذ ، فاحكم علينا بما تهوى،ورأيك لايفيلُ

فقلت له : قتلت بغير جرم وغبّ الظلمَ مرتعه وبيلُ

فسل هذي:متى تقضي ديوني وهل يقضيك ذو العلل المطولُ

فقالت : ان ذا كذب وبطلُ وشر من خصومته طويلُ

أأقتله،و مالي من سلاح وما بي لو أقاتله حويلُ

ولم اخذ له مالا فيلغـــــى لـــه دين عليّ كمـــا يقـــولُ
وعنـــد اميرنا حكـــم وعـــدل ورأي بعد ذلكم اصيـــــلُ
فقال اميرنا : هاتوا شهـــوداً فقلت : شهيدنـــا الملك الجليلُ
فقال يمنيها ، وبذلك اقضـــي وكل قضائـــه حسن جميـــلُ
فبتت حلفـــة مالي لديهـــا نقيـــر ادعيـــــه ولافتيـــلُ
فقلت لها ، وقد غلب التعزي اما يقضي لنا يابثنُ سُـــــولُ[١٠]

فالحوار الذي طبع القصيدة اضفى عليها مسحة جمالية ، ودفـــع الســـامع الـــى متابعة الاحداث ومعرفة النتيجة التي انتهى اليها الشاعر . فهو حوار مركب اشترك فيه ثلاثـــة اطراف جميل ومحبوبته بثينة و (ذا سجوف) اي استار والتي جعلاهـــا حكماً بينهما لحل الخصومة .

ويتوزع هذا الحوار على ثلاثة مشاهد ، تدور احداث الاول منها بيـــن جميـــل وبثينة ، ثم ياتي المشهد الثاني وهو بحضورهما امـــام الحـــاكم ، ومـــن طريـــف الصياغة ان جميلاً يعطي تبريراً على لسان بثينة لجعل الحكم من اهلها ..

فقالت : أبتغي حكماً من اهلي ولايدري بنا الواشي المحول [١١]

وتدور المحاورة بين الشاعر والحكم ، وهنا يبرع جميل في تضميـــن الحـــوار معنى اسلاميا معروفا في الفقه الاسلامي ، وهو (البينة على من ادعى واليمين على من انكر) فيطلب الحكم الشهود من جميل فيعجز جميل عن ذلك ، ثم يطلب الحكـــم ان تؤدي بثينة اليمين ، فتحلف بثينة فيقضي لها الحكم ، فلما سقط في يد جميل اخذ يلتمس بثينة ان تمنحه وصلا أو موعدا لعل ذلك يشفي غليله ، فيصف جميل فـــي البيت قبل الاخير بثينة وقد (زجذت حاجبيها) اي مدتهما وقربت ما بينهما اسـتنكارا وغضبا .

فالحوار المركب ضئيل بالقياس الى الحوار البسيط ، وتلك مسألة تتصل بعمليـة الاكتساب الحسي وماله علاقة مباشرة بالبيئة من جهة و بيـــن اهتمـــام الشـــاعر بمحبوبته اهتماما عذريا – ان صح التعبير – يجعلنا نسلم بأن نسبة الحوار المركب يجب ان تكون قليلة ان لم تكن معدومة ، فالنص السابق الـــذي وضعنـــاه ضمـــن

النصوص التي جاء فيها الحوار مركبا نجد ان اكثره من نسج خيال الشاعر ، وهو بعيد بعض الشئ عن الصياغة القصصية الواقعية الذي يلمس من خلالها القارئ اثرا بينا من الحياة ، وهو ما نتواخاه من دراسة الحوار المركب .

ومن طريف النتائج ان تكون نسبة الحوار مع الحبيبة مساوية لنسبة الحوار مع الاصحاب ، ذلك لان المحب خاصة اذ كان من طراز جميل ، فان حبيبته تكون شغله الشاغل ، وهو لايجد في الحياة موضوعا يثيره اكثر منها ، فان لم يكن الحوار معها فهو مع الاصحاب يحدثهم عنها وعن حبه لها وشكواه منها وهيامه بها.

ويروي لنا ابو الفرج الاصفهاني مواقف عديدة تؤكد لقاء جميل ببثينة ، ومما يرويه ابو الفرج في هذا الصدد ، (أن بثينة واعدت جميلا ان يلتقيا في بعض المواضع فأتى لوعدها ، وجاء اعرابي يستضيف القوم فانزلوه وقروه ، فقال لهم : قد رأيت في بطن الوادي ثلاثة نفر متفرقين متوارين في الشجر ، وانا خائف عليكم ان يسلبوا بعض ابلكم، فعرفوا انه جميل وصاحباه فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده ، فلما اسفر الصبح انصرف كئيبا سئ الظن بها ورجع الى اهله ، فجعل نساء الحي يقر عنه بذلك ويقلن له،انما حصلت منها على الباطل والكذب والعذر وغيرها اولى بوصلك منها كما ان غيرها -يحظى بها ، فقال في ذلك) :

أبثنين إنك قد ملكت فاسجحي وخذي بحظك من كريم واصل [١٢]

ويروي أبو الفرج ايضا ، ان جميلا لقي بثينة بعد تهاجر كان بينهما طالت مدته ، فتعاتبا طويلا فقالت له : ويحك ياجميل ! تزعم انك تهواني وانت الذي تقول :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من انيابها بالقوادح

فأطرق طويلا يبكي ثم قال : بل انا القائل :

الا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لايخفى علي كلامها

فقالت له : ويحك ما حملك على هذه المعنى؟أوليس في سعة العافية ماكفانا جميعا[١٣] ويذكر ابو الفرج روايات اخرى عن اللقاءات بين جميل وبثينة ، وهي

بلا شك تركت اثرا في شعر جميل ، فانطبع حواره بالصفة المباشـــرة اي جعـل الحديث يدور بينه وبين بثينة في العموم .

وقد يتفرع الحوار في شعر جميل حسب اطرافه او محاوريه فقد نجـد جميـل بثينة في بعض النصوص محاورا نفسه ، مستنطقا الديار التي كان بها أهل الحبيبـة مقيمين ، ولكنه كان يعرف الجواب مسبقا ، لانها تعجز عن الاجابة ، وهـو يمـل الوقوف عليها . وقد اشار الى ذلك في قولـــه :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

وقفت بها حتى تجلت عمايتي ومل الوقوف العنتريس المنوق[١٤]

وقد يكون محاوره اخا له ذا قرابة ، وهو يجد في نصيحته ولومه رشادا لـــه ، فيطلب اليه ان يفوق من هيامه وهل هناك راد لقضاء اللـــه ، فيقول :

لقد لامني فيها أخ ذو قرابة حبيب اليه في نصيحته رشـدي

فقال: أفق حتى متى أنت هائم ببثينة فيها لاتعيد ولاتبـــدي

فقلت له:فيها قضى الله ماترى علي ،وهل فيما قضى الله من رد [١٥]

ويحاور جميل في نموذج اخر خليليه طالبا اليهما ان يساعداه بالذهاب الى بثينة لينقلا اليها ما يحس به من الوجد ولوعـة الشوق وهو يصرح بان فعلهما هذا لـن ينساه حتى يواري في ثرى قبره ، وهو يطلب منهما ان يشفعا لـــه ويسلما عليـها فيقول :

خليلي عوجا اليوم حتى تسلمـا على عذبـة الانياب طيبة النشر

فانكما ان عجتما بي ساعـــة شكرتكما حتى اغيب في قبـري

ألما بها ثم اشفعا لي وسلمـــا عليها،سقاها الله من سائغ القطر[١٦]

وقد يخرج الحديث عن اطار تخصيص المتحاورين ، كأن يجعله يـدور بينـه وبين مجموعة من اصحابه او جماعة غير محددة ، فيفترض ان هناك من يلومـــه في حب بثينة، ولكنه لايكترث ويطلب من معاتبيه ان يقتصدوا في لومهم ، فيقول :

لمـــا أطالوا عتابي فيك قلت لهم لاتفرطا،بعض هذا اللوم واقتصدوا

قد مات قبلي اخو نهد وصاحبه مرقش،واشتفى من غروة الكمـد

وكلهم كان مـــن عشق منيته وقد وجدت بها فوق الذي وجدوا[١٧]

ان الوقوف عند ابعاد هذه الظاهرة الفنية في شعر جميل بثينة ، ومعرفة اثرهـا في بناء القصيدة ، يؤكد قدرة الشاعر على ادارة الحوار وتنيوعه ومنحـــه صفـة تشويقية ، فضلا عن الرغبة التي يخلقها الحوار في نفس السامع وما يبعثـــه مـن مشاعر وأحاسيس صادقـــة .

الهوامش

(١) تاريخ الادب العربي (العصر الاسلامي)/ ٣٤٨

(٢) تاريخ الادب العربي (العصر الاسلامي) /٣٤٩

(٣) المصدر نفسه / ٣٥٩

(٤) الحوار في غزل عمر بن ابي ربيعة/٣

(٥) المصدر نفسه / ٢٠

(٦) الاغاني ٨ /١٢٤

(٧) ديوان جميل بثينة/ ١٧٥

(٨) المصدر نفسه /٨

(٩) المصدر نفسه/ ٦٢

(١٠) ديوان جميل / ١٦٣ -١٦٤

(١١) المصدر نفسه / ١٦٣

(١٢) الاغاني ٨ / ١٠٠

(١٣) المصدر نفسه ٨ / ١٠٤

(١٤) ديوان جميل / ١٤٤ -١٤٥ – السملق : التي لا تنبت شيئا ، العنتريس: الجمل الشديد الصلب ،المنوق : المذلل كالناقة.

(١٥) المصدر نفسه / ٧٣ – ٧٤

(١٦) المصدر نفسه / ١٠٢ – ١٠٣

(١٧) ديوان جميل / ٥٩ – ٦٠